

حرب تشرين والمصير القومي

«حرب تشرين حرب كشفت الامة العربية نتائجها بسرعة مذهلة، ان مرحلة جديدة في تاريخ العالم، في حياة العصر قد بدأت. وكان شيء من هذا قد ظهر على نطاق اضيق وتأثير أخف في العام ١٩٥٦ في ازمة السويس وهذا ما يمكن تسميته «بعالمية القضية العربية».

منذ قرن ونصف كانت «المسألة الشرقية» لها تأثيرات وتفاعلات شبه عالمية ولكن بمعنى تنافس وتطاحن الدول الكبرى ومصالحها في تلك المنطقة وتزاحم على اقتسامها واستغلالها.

ان بروز القضية العربية في هذه المرحلة هو بروز فاعل يعبر عن نهضة امة. ولئن كان لتنافس الدول المتقدمة صناعيا على ثروات الوطن العربي دخل في اعطاء القضية مثل هذه الابعاد، فان العنصر الذاتي القومي عنصر النهضة والانبعاث يبقى هو الاساس.

والاحداث الدولية الكبيرة وحدها لا تكفي لتعطي قضية من القضايا اهمية عالمية تاريخية تكون بمثابة اشعاع. أما عندما يحصل لقاء بين هذه الاحداث وبين تطور ذاتي عميق ومتصل، في امة من الامم، فتأخذ المسألة شكلاً آخر.

الامة العربية في حالة تحفز وانبعاث منذ عهد محمد علي، وقد جاء العدوان التاريخي عليها باقامة دولة اسرائيل محرصا ومعجلا لنهضة اصيلة كانت ستواصل سيرها ولولم يحصل هذا العدوان. فمعركة تأميم القناة في العام ١٩٥٦

بعد ظهور عبدالناصر كانت أول رد على هزيمة ١٩٤٨ وإنشاء دولة اسرائيل ، ولكنه لم يكن الرد الكافي فكان يحمل في انتصاراته وحتى في انتكاساته معنى الاستباق وانعكاس الآمال العربية على المستقبل . وفي هذه الحالات من اطوار ومراحل نهضة الامة تكون الارادة القومية دوما أقوى وأعمق وأبعد أثرا وأوضح تعبيراً من ارادة الافراد أو حتى الحركات الثورية . فعبد الناصر في تخطيطه الواعي لم يكن ينوي محاربة اسرائيل في حزيران ١٩٦٧ . ولكن الارادة القومية العميقة كانت تضغط وتملاء الجو من أجل الوصول الى مجابهة قد لا تكون متكافئة ، ولكنها تنقذ القضية الاساسية من النسيان والاهمال والتبني اللفظي الخادع ، والانحراف بالنهضة العربية عن طريق المعركة الاساسية ، وعن طريق النضال الجدي القاسي والمواجهة الجريئة الصريحة مع الاستعمار والصهيونية قبل الانغماس والتهيه في سراديب التنمية التي لا هدف اساسياً لها . .

وهكذا وبرغم هول الهزيمة التي حلت بالعرب في حزيران ١٩٦٧ وبالرغم من كونها جاءت اقسى وأوسع مما توقعه الاعداء فان نتائجها تفاعلت تفاعلاً خصباً مع نفسية الامة وعوامل النهوض والتقدم فيها وبدلاً من ان تلد اليأس جددت الحيوية والايمان وصقلت الكفاءة ، وكانت حرب تشرين بعض نتائجها . ان الامة العربية التي وقع عليها اكبر ظلم في العصر قبلت التحدي وجعلت هدفها ان تحقق من خلال تحريرها لنفسها ودفاعها عن حقها تحرير العالم من الظلم . وكان بالتالي من الطبيعي ان تأخذ حرب تشرين هذه الابعاد الدولية والمعاني الانسانية .

وهنا لابد من الاشارة الى الهزة العميقة التي أحدثتها هزيمة حزيران في نفوس المثقفين العرب .

فقد دفعتهم الى الاقتراب اكثر فأكثر من مشاكل امتهم ومصيرهم والانكباب على امراض الحاضر لتحليلها ومعالجتها بمستويات وأساليب متعددة وكان من نتيجة ذلك هذا التخمر الثوري القومي الذي انفجر في حرب تشرين قوة وكفاءة وبطولة . وظهرت هزيمة حزيران بشكل واضح ، انها كانت بصورة خاصة نتيجة القحط الفكري الذي رافق الحكم الديكتاتوري نتيجة غياب الفكر الحر ، وتدني مستوى الثقافة ، ثم ظهر

في الفترة ما بين هزيمة حزيران وحرب تشرين ان دور المثقفين ومعالجاتهم للحياة القومية كانت افعال وأعمق اثرا من الشعارات الحزبية التقليدية المستهلكة ولو ان ذلك لا يصيب جميع الاحزاب الثورية والتقدمية بالنسبة نفسها مما يشير الى نقص وخلل في الحياة الحزبية التي غزتها البيروقراطية، فلم تعد بواقعها الراهن تربة خصبة ومناخا صحيا لازدهار الفكر الثوري الحقيقي .

الاحداث والشعب

الاحداث هي نصف المسألة ونصفها الآخر هو اثرها في الشعب : ان تاريخ الشعب وتراثه وانتصاراته ونكساته في الماضي والحاضر ومؤهلاته للمستقبل في الاستمرار والانبعاث هي المحصلة وهي الجواب على الاحداث .

والذين طبخوا مؤامرة اغتصاب فلسطين منذ أوائل هذا القرن والتفوا في هذه المؤامرة مع المصالح الاستعمارية من اجل ابقاء البلاد العربية في حالة تجزئة وتخلف حتى يسهل على القوى الاستعمارية استغلال ثرواتها والاستفادة من موقعها ومزاياها لم يكن في حسابهم ان يتحول هذا المشروع الاستعماري كما ذكرنا - الى محرك ومحرض للنهضة العربية .

وهنا يدخل عامل تكوين الامة التاريخي والجغرافي . فهي من قديم الزمان تعيش على ارض هي ملتقى الطرق بين القارات، ثم ظهرت فيها دعوة دينية لها ابعاد عالمية، وتطور تاريخها بهذا الاتجاه الانساني العالمي . وعندما تؤخذ هذه الامور بعين الاعتبار يفهم لماذا يأخذ الجواب العربي على التحديات الاجنبية والمؤامرات الدولية حجما ومعنى بحجم العالم ومعنى الانسانية .

وهنا تتبادر الى الذهن ثورة فيتنام ومقارنتها بالثورة العربية . فحرب فيتنام هي منارة في تاريخ نضال الشعوب وصمودها دون شك، ولكنها لم تأخذ في يوم من الايام حجم القضية العربية حتى في اسوأ حالات هذه القضية . أي عندما كانت في وضع يائس وضعيف . ذلك ان شعب فيتنام وحضارته لم يشكلا بالنسبة الى العالم وبالنسبة الى العالم المتقدم بصورة خاصة التحدي والمنافسة في حين يعترف للامة العربية صراحة أو ضمنا بهذا الدور . . ومثلما كان في ١٩٥٦ استباق للزمن وتطلع للمستقبل

وتصور امكانيات الحاضر وكأنها قد تحققت في المستقبل ، تتكرر الظاهرة اليوم فيعيش الشعب العربي في تخيل النتائج والتطورات الكبرى التي ولدتها حرب تشرين وكأنها متحققة الان ، رغم انها لا تزال بذورا تحتاج الى وقت والى عناية وجهود مستمرة لكي تنمو وتثمر ولا يصيبها الجفاف أو الهزال ، خاصة ان الاعداء قد انصرفوا منذ الان الى التفكير واعداد الوسائل التي تبدد هذه البذور او تضعف وتؤخر نموها وتنحرف بها عن غايتها .

والقيادات الحالية تستغل هذه الحالة لتنفرد في التصرف بمقدرات الامة من دون ان تجد مراقبة شعبية جدية على عملها . وليس في تصرف هذه القيادات ما يطمئن الى ان ايجابيات حرب تشرين ستسير في طريق النمو وفي الاتجاه الصحيح . ان الافراد حتى عندما يكونون من النوعية الفذة النادرة التي تصنع التاريخ ، يكونون في تصوراتهم وأعمالهم دون مستوى الارادة والامكانيات الشعبية . فكيف اذا كانوا من النوع الذي تأتي به الظروف والمصادفات ليحصد ما زرعه غيره ؟ .

ان الخطر يكمن اليوم في نوعية القيادة ومستواها ، فبينما تعتبر الجماهير انها لم تتمكن من اعطاء كل طاقاتها ومن اكمال النصر الذي بدأته ، تعتبر قيادات الانظمة انها بايقافها الحرب عند ذلك الحد قد تفادت الهزيمة ، وانها احرزت من المكاسب اكثر مما كانت تتوقع واكثر مما كان الشعب يستحق ، وهذا يدل على ان هذه القيادات كانت عاجزة عن فهم نفسية الجماهير وادراك غنى امكانياتها لانها كانت فاقدة التصور الصحيح لتاريخ الامة ورسالتها ولتراثها وللمستقبل الذي تطمح اليه فاقدة لادراك ملامح العصر واتجاهه أي فاقدة لعنصر الفكر وهذا اهم شرط يطلب توافره في قيادة المستقبل الى جانب الشروط الاخرى .

احتيال على النصر

هناك شعور غالب في الرأي العام العربي بوجود غبن كبير واحتيال . شعور بان النتائج او الحل الذي تسعى اليه الانظمة هو اقل بكثير او غير متناسب مع ما كشفت

عنه حرب تشرين من طاقات عربية هائلة .

فثمة احتيال على النصر وتقليل من حجمه وشأنه . كما حدث تأمر عليه عند وقف اطلاق النار لايقاف الاندفاع التاريخية التي انطلقت من الجيوش العربية والجماهير العربية . والتي تجلت في وحدة الشعور القومي تجاه معركة المصير، وخلق حالة من الغرور والشعور بالثقة والاطمئنان الخادع ، ليسهل معها القبول بالتفريط في الحاضر واعتباره تفريطا مؤقتا لايلبث ان يعوض ، بقصد تعميم الاسترخاء وتبريد الجذوة ، ولجم الاندفاع واخماد النار التي ظلت تتأجج منذ هزيمة حزيران حتى الحرب الاخيرة في تشرين ، وكذلك المضي في عملية تقرير المصير القومي في اخطر ظرف مر على الامة العربية في معزل عن الجماهير . وفي اصرار على قمعها ومنعها من التحرك وقول كلمتها فيما يخص مصير الامة ومستقبل اجيالها ، واعطاء فرصة للعدو لكي يعالج اسباب الهزيمة التي مني بها ويتداركها ويعد للنهوض منها ويستغل حالة الجمود والذهول التي تخيم على البلاد العربية ويفاجيء العرب بضربة تعيد اليه بعض المكاسب وبعض المعنويات التي فقدها .

اريد لهذه الحرب ان تكون مصنوعة ومحدودة ، وان لا تتجاوز في اهدافها تطبيق قرار مجلس الامن (٢٤٢) الذي يمثل حالة العرب عندما اصيبوا بهزيمة حزيران ، او حالة الضعف العربي ، مقابل التفوق الاسرائيلي في ذلك الحين ، ولكن الحرب جاءت على غير ما خطط لها وتفجرت بالطاقات والقدرات الخلاقة الخارقة . ورغم ذلك بقيت الانظمة عند مطلب القرار القديم لمجلس الامن وفي مستواه . لانها كانت مشاركة في صنع الهزيمة وعاجزة عن تجاوز ذلك المستوى . وكما اثبتت حرب حزيران ان الاتكال على هذه الانظمة هو الذي يحرم الشعب العربي من ثمار انتصار تاريخي . .

ان هذه الانظمة لو كانت تمثل ارادة الجماهير ، لاستمرت في القتال ، او على الاقل في تعبئة الجماهير وفي قطف ثمرات الانطلاقة القومية . فتحقق خطوات وحدوية حاسمة بين الاقطار المقاتلة تكون هي الضمانة لانسحاب العدو من

الاراضي ، ولتراجع الاستعمار بدلاً من الاعتماد على (نخوته وصدقه).

فأمام هذا التشويه والاحتيايل على نتائج النضال العربي لابد من تجاوز هذه الانظمة لكي يعود الوضع الى سلامته، وتقف الجماهير امام مسؤولياتها وامام اعدائها وقفة صريحة واضحة لا يداخلها الالتباس ولا ينطلي عليها الخداع . ولكي تسترد الجماهير العربية زمام مقدراتها وتفرض على الاعداء النتائج المنطقية الطبيعية لكل نصر وهي : رفض التفريط بالارض وبالحقوق القومية ، وتوفير القوة الفورية الضامنة لجدية هذا الرفض ، في توحيد الاقطار المقاتلة واطلاق حرية الجماهير وطاقاتها الخلاقة .

الجماهير تمارس حريتها في الحرب .

لقد ضاعت فرص كثيرة ثمينة منذ وقف اطلاق النار حتى الآن . ولكن لا يزال امام الجماهير العربية فرصة لكي لا يتحول النصر الى هزيمة كاملة . لتتحرك هذه الجماهير ولتقل كلمتها في هذا المستوى المتخلف من الحكم والقيادة والذي استوى فيه مع فروق نسبية - التقدمي والرجعي . ولقد اصبح واضحاً ان الفرق بين التقدمية والرجعية ليس فقط في الانجازات الاجتماعية ومشاريع التنمية والتعمير، بل هو في الشيء الاساسي والاهم ، وهو بناء الانسان العربي الحر، ولاتزال الانظمة على اختلافها سجوناً كبيرة لهذا الانسان، ولاتزال العقلية الفردية الفوقية السلطوية هي اكبر عائق في سبيل ولادة هذا الانسان العربي الجديد، ولقد كانت حرب تشرين مناسبة لظهور بعض ما يستطيع هذا الانسان العربي اعطائه من كفاءة وشجاعة وبطولة نادرة، عندها يتحرر من سجن الانظمة بدخول الحرب، لان الحرب في الاوضاع العربية الراهنة امست المجال الوحيد لممارسة الجماهير العربية لحريتها . وهذا ما يفسر تلكؤ الانظمة في الاقبال على الحرب ومسارعتها بانهاء القتال عندما تشعر بان استمراره سوف يؤكد استرداد الجماهير حريتها بصورة نهائية .

ان ثورة العرب في هذا العصر هي الحرب لانها المجال الاوسع والاكمل والاسلم لتفتح جميع مواهبهم وتفجر كفاءاتهم وبطولاتهم . والحضارة التي يسعى

العرب الى بنائها لن تبني الا من خلال النضال في اعلى مراتبه واشكاله، اي النضال الشعبي المسلح، وستكون الحضارة القائمة على احترام المبادئ والمثل الانسانية، وعلى احترام الانسان وحرية وكرامته واحترام حريات الشعوب والسعي نحو السلام الحقيقي.

ان حرب العرب في هذا العصر هي حرب تحرير وحرية، وكرامة، وحب للحياة ودفاع عن الحياة. حرب العرب هي الحضارة وهي الثورة، هي ذروة التنظيم والعلم والانضباط والتضحية والاخلاق. من هنا تأتي اهمية الحرب الاخيرة التي لو اتيح لها ان تستمر لافضت الى تغييرات جذرية وجوهرية حاسمة لصالح القضية العربية بصورة عامة ولفلسطين بصورة خاصة.

معركة فلسطين جزء من المعركة القومية

ان معركة فلسطين هي جزء من المعركة القومية، ومسؤولية تحريرها تقع على العرب جميعا لان المستهدف من قيام «اسرائيل» هي الامة العربية لا القطر الفلسطيني. والمخطط الصهيوني الذي وضع في اوائل هذا القرن لم تقتصر حدوده على ارض فلسطين فحسب، بل تعداها الى اجزاء اخرى اضافية من اراضي الوطن العربي.

عندما تكون قضية فلسطين هي الاصل والاساس، وهي قضية العرب الاولى، لا يعود هناك فرق بين ارض فلسطين وبين ارض اي قطر عربي اخر، الا من ناحية خطر ترسيخ الاستيطان الصهيوني وترسيخ الادعاء التاريخي الباطل للصهيونية بحقها في ارض فلسطين. ويصبح كل تحرير لارض عربية هو جزء من تحرير فلسطين او مساعد او مههد لتحرير فلسطين.

ولكن عندما تكون عودة هذه الاراضي الى مصر وسوريا لها ثمن: هو التنازل عن فلسطين للصهيونية، وعندما تكون عودة هذه الاراضي بداية لانصراف مصر وسوريا عن معركة التحرير، وعن وحدة المصير. بدلا من استخدام هذه العودة، وهذا الكسب، لمزيد من الاعداد والتهيئة للجولة المقبلة مع العدو،

عندئذ يظهر التفريط بالقضية القومية، وينكشف التزييف والاحتيال، وتجعل قضية فلسطين هي القضية الاخيرة والاقبل اهمية، وليست قضية العرب بل قضية جزء من الشعب الفلسطيني. !.

والذي يجري الان هو ان مصر تريد استرداد اراضيها، وكذلك سوريا، ولايجوز ان تتذرع المقاومة بحجة تخاذل الانظمة وقبولها بالتسوية، لانها تصبح عندئذ مثل قيادات الانظمة القابلة بالتسوية سواء بسواء. الدولة الفلسطينية بمقدار ماهي رمز التسوية، هي ايضا رمز ارجاع فلسطين او القضية الفلسطينية من حجمها التاريخي المصري بالنسبة الى الامة العربية، الى حجم جغرافي قطري، هزيل ممسوخ! ان اعطاء الاهمية الاولى، الكبرى، للقطر، للجزء قبل الكل يؤدي الى التفريط بالقضية القومية، ان مجموعة قطريات لاتوصل الى الوحدة، ومجموعة مصالح قطرية لاتوصل الى المصلحة القومية!

ان فلسطين والشعب الفلسطيني هما دوما الضحية، وهما يدفعان دوما الثمن. وهذا يجب الا يستمر لان هذا الجزء الذي يحاولون ارضاء الفلسطينيين به لايمثل سوى خمس اراضي فلسطين، وسوف لا يكون حرا، عدا انه سيؤخذ من الشعب الفلسطيني صك تنازل عن بقية اراضيه.

ان جو التسوية يسود، في غياب التحرك الجماهيري، وفي حال التحرك الجماهيري يسود المنطق القومي حتى في ابعد الاقطار عن الوعي القومي، واكثر الاقطار حرصا على المصالح القطرية.

ان التحرك الجماهيري الذي ظهر في مصر اخذ ابعادا قومية، فهو لم يضع في رأس الهدف البناء والتعمير، واستخدام رؤوس الاموال، واعادة بناء المدن المخربة. بل ان التحرك الجماهيري في مصر - مثلما ظهر في عدة مناسبات طرح قضايا قومية مثل التحرر من الاستعمار والصهيونية، والارتباط العضوي بالبلاد العربية وبقضية الوحدة كعامل اساسي في معركة التحرر. - يجب ان نرفض دولة فلسطينية من ضمن التسوية.

- يجب ان نرفض اعادة الاراضي الفلسطينية الى حسين .
- المطلوب تعطيل التسوية في مصر وسوريا ودفع كل قطر عربي للمساهمة في
تعطيلها لانها هي الاساس لتسوية الدولة الفلسطينية او لتسوية عودة الاراضي الى
حسين .

- المطلوب استئناف المعركة والاعداد لها ، فاما ان تسحب اسرائيل دون شرط ودون
مقابل عندئذ تقوم سلطة وطنية على هذا الجزء من ارض فلسطين بانتظار معركة
التحرير الكامل ، واما ان يستمر النضال حتى يتم التحرير في المستقبل .

الوحدة والديمقراطية

يجب الاعتراف باننا ما زلنا رغم التحول الكبير الذي احدثته حرب تشرين -
مازلنا بوضع دفاعي مهددين باستمرار بهجوم غادر من اسرائيل والامبريالية الاميركية .
وان اخر ماتفكر فيه «اسرائيل» واميركا هو التسليم بانتصار العرب ورجحان كفتهم
وتمكنهم من استثمار هذا الرجحان لتحقيق مزيد من التقدم والقوة .

وليس من شك في ان ثمة في «اسرائيل» والولايات المتحدة هيئات على اعلى
مستوى سياسي وعسكري تدرس ليل نهار وتخطط للاخذ بثأر هزيمتهم النسبية في
حرب تشرين . ولئن تحقق في الوقت نفسه نوع من التضامن العربي كان له اثره
الفعال ، فان ما يعده الاعداء للمستقبل بعد صحتهم وذعرهم من بوادر النصر العربي
لن يكفي لمواجهته اعداد على الوتيرة السابقة اي في اطار التجزئة العربية والتنسيق
المرتجل والتضامن القصير النفس . وليس من جواب ناجح على الاعداد المعادي الا
بالخطوات الوحدوية . وفي جو التجزئة الراهنة تصعب مطالبة الجماهير بالاستمرار
في تحمل اعباء معركة لم تعد هذه الجماهير واثقة من جديتها ، ويسهل بالتالي في جو
العزلة القطرية نجاح مغريات الازدهار والرخاء . في حين ان الجو الجديد الذي
تخلقه الوحدة جو الثقة بالنفس والايمان بالمستقبل والشعور الحي برسالة الامة كفيل
بان يفجر في نفوس الجماهير العربية الطاقات والكفاءات الخلافة .

ان خلاص العرب هو في الوحدة وسبيلهم الى تحقيقها هو الديمقراطية . ولكي

لاتبقى الوحدة مطلباً نظرياً، ولكي لاتنحرف الديمقراطية الى اهداف اقل جوهرية من الوحدة. فيجب ان تتوجه الجماهير لانتزاع حقها في الديمقراطية المرتبطة بالوحدة. اي لتحقيق الوحدة جماهيرياً وتحقيق الديمقراطية من خلال النضال الوجدوي للجماهير.

شباط ١٩٧٤